المحاضرة الخامسة :دراسة الأنثروبولوجيا واتجاهاتها المعاصرة

تمهيد

لاقت النظرية التطوّرية التي ظهرت في القرن التاسع عشر انتقادات واسعة باعتبارها استندت إلى الحدس والتخمين وتعميم الأحكام المطلقة على الثقافات الإنسانية من دون أن تثبت صحّة ذلك بالبراهين أو القرائن العملية الواقعية.

ولذلك بدأت تضمحلّ تدريجياً مع بداية القرن العشرين لتحلّ محلّها أفكار نظرية جديدة لدراسة الثقافات الإنسانية من حيث نشوؤها ومكوّناتها وتطوّرها فكان أن ظهرت خلال الربع الثاني من القرن العشرين اتجاهات رئيسيّة متفاعلة فيما بينها ركّزت في دراستها على تناول العلوم الاجتماعية بأسسها ومنطلقاتها وأهدافها .وهذا ما أسهم بفاعلية في إرساء دعائم علم الأنثربولوجيا المعاصر.

- 1الاتّجاه التاريخي:

ويقسم إلى قسمين : الاتجاه التاريخي التجزيئي ، والاتّجاه التاريخي النفسي وسنقدّم فيما يلي عرضاً موجزاً لكلّ منهما.

أ -الاتّجاه التاريخي التجزيئي : ذكرنا أنّ الفكر التطوّري للحضارات الإنسانية أصبح سائداً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حيث بدأت تتبلور الدراسات الأنثروبولوجية وظهر إلى جانبه أيضاً الاتّجاه الانتشاري الذي يعتمد على أنّ نشأت الحضارة الإنسانية كلّها ترجع إلى مصدر أو مجتمع واحد ومنه انتشرت إلى أماكن أخرى في العالم.

ويوجد الاتّجاه الانتشاري في كلّ من الأنثروبولوجيا الثقافية والأنثروبولوجيا الاجتماعية وان أخذ طابعاً خاصّاً في كلّ منهما فتطبيق الاتجاه الانتشاري في مجال الأنثروبولوجيا الثقافية يتعلّق بجمع العناصر الثقافية بما في ذلك من العناصر التكنولوجية والفكرية بينما يقتصر في مجال الأنثروبولوجيا الاجتماعية على العلاقات والنظم الاجتماعية السائدة في المجتمع والتي تشمل بعض العناصر الثقافية ولا تشملها كلّها.

ويقوم الاتجاه هنا على مبدأ هام وهو أنّ النظم الاجتماعية كثيراً ما تستعار أو تنقل من مكان إلى مكان آخر وبناء على ذلك فإنّ تشابه النظم الاجتماعية والعادات في المجتمع الواحد أو في المجتمعات المختلفة لا ينشأ على نحو تلقائي وإنما ناتج عن التشابه في الإمكانات الاجتماعية والطبيعيّة والإنسانية .

وعلى الرغم من ذلك استمرّ اهتمام الباحثين باستخدام المنهج التاريخي في تفسير ظاهرة التباين بين الحضارات في المجتمعات الإنسانية واعتمد هذا الاتّجاه على مبدأين اثنين.

أولهما : أنّ الاتّصال بين الشعوب المختلفة كان بفعل الاحتكاك الثقافي الحضاري المباشر وغير المباشر.

وثانيهما : عملية انتشار بعض المكوّنات والخصائص الحضارية أو كلّها من مصادرها الأصلية إلى المجتمعات الأخرى سواء بالرحلات التجارية أو بالكشوف أو بالحروب والاستعمار وهذان المبدآن متكاملان في دراسة الظواهر الثقافية ويمكن من خلالهما تفسير التباين الحضاري بين الشعوب.

وقد اعتمد هذا الاتّجاه منهجاً تاريخياً– جغرافيا قاده الألماني" فريدريك راتزل" الذي ركّز على أهميّة الاتّصالات والعلاقات الثقافية بين الشعوب المختلفة ودورها في نمو الحضارة الخاصة والعامة وانطلاقاً من هذا الاتّجاه، ظهرت في أوروبا نظريتان مختلفتان حول التفسير الانتشاري لعناصر الثقافة.

النظرية الأولى : هي النظرية الانتشارية التي تعتمد الأصل المركزي الواحد للثقافة الحضارة

سادت هذه النظرية في إنجلترا وأرجعت نشأة الحضارة الإنسانية كلّها إلى مصدر واحد ومنه انتشرت إلى المجتمعات الإنسانية الأخرى.
وكان من روّاد هذه النظرية عالم التشريح " إليوت سميث" وتلميذه وليم بيري اللذان رأيا أنّ الحضارة الإنسانية نشأت وازدهرت على ضفاف النيل في مصر القديمة، منذ حوالي خمسة آلاف سنة قبل الميلاد.
وعندما توافرت الظروف المناسبة للتواصل بين الجماعات البشرية بدأت بعض مظاهر تلك الحضارة المصرية القديمة تنتقل إلى أرجاء متعدّدة من العالم حيث عجزت شعوبها عن التقدّم الثقافي والابتكار الحضاري فراحت تعوّض عن ذلك العجز بالاستيراد والتقليد.
لقد نال إليوت سميث شهرة كبيرة عن جدارة نتيجة أبحاثه عن المخ ودراسته في حيث انكبّ في إحدى فترات حياته على دراسة المخ في المومياء المصرية وقادته أبحاثه هذه إلى الإقامة في مصر حيث أدهشته الحضارة المصرية القديمة وأخذ كما فعل العديدون يلاحظ أنّ الثقافة المصرية القديمة، تضمّ عناصر كثيرة يبدو أنّ لها ما يوازيها في ثقافات بقاع أخرى من العالم .
وقلبت نظرياته الجريئة الاعتبارات التقليدية عن الزمان والمكان فلم يقتصر على القول بأنّ العناصر المتشابهة في حوض البحر الأبيض المتوسط وأفريقيا والشرق الأدنى والهند من أصل مصري بل ذهب إلى أنّ العناصر المماثلة في ثقافات أندونيسيا والأمريكتين، تنبع من المصدر المصري ذاته.
أمّا وليم بيري فقد أشار إلى أن أحد عناصر المجمّع الثقافي الذي تزعم هذه المدرسة أنّ أصله في مصر ومنها انتشر وهو الاعتقاد بأنّ الملك ابن الشمس، والعناصر الأخرى في هذا المجمّع هي: التحنيط و بناء الأهرامات .

النظرية الثانية : هي النظرية الانتشارية التي تعتمد الأصل الثقافي الحضاري المتعدّد المراكز وكان من دعاة هذه النظرية، فريق من العلماء الألمان والنمساويين، وفي طليعتهم "فريتز" و"وليم شميدت ".
لقد رفض هذا الفريق فكرة المنشأ أو المركز الواحد للحضارة الإنسانية لأنّ هذه الفكرة ضرب من الخيال أكثر من قربها إلى الأساس العلمي وافترضوا وجود مراكز حضارية أساسية وعديدة في أماكن متفرقة في العالم .ونشأ من التقاء هذه الحضارات بعضها مع بعض دوائر ثقافية تفاعلت ببعض عمليات الانصهار والتشكيلات المختلفة .
وكان ويسلر أوّل من استعمل الدائرة الثقافية بهذا المعنى في بحثه عن ثقافات الهنود الأمريكيين .ولا يزال تعريفه لهذا المفهوم على الرغم من تعديله منذ ذلك الوقت مفيدا في هذا المجال يقول ويسلر " :إذا أمكننا تجميع سكان العالم الجديد الأصليين، أي الهنود الأمريكيين فسنحصل على دوائر متعدّدة : دوائر طعام، دوائر منسوجات، ودوائر خزف"...

ب -الاتّجاه التاريخي النفسي:

بدأ الاتّجاه التاريخي التجزيئي يتعدّل ويأخذ مسارات جديدة حيث ظهرت فكرة توسيع المفهوم التاريخي في دراسة الثقافات الإنسانية وذلك بفضل من تأثّروا بنتائج علم النفس ولاسيما سيغموند فرويد فقد رأت روث بيند كيت ورفاقها أنّ دراسة التاريخ بوقائعه وأحداثه لا تكفي لتفسير الظواهر الاجتماعية والثقافية وذلك لأن الظاهرة الثقافية بحدّ ذاتها مسألة معقّدة ومتشابكة العناصر، فهي تجمع بين التجربة الواقعية المكتسبة والتجربة السيكولوجية النفسية وأنّ أية سمة من السمات الثقافية تضمّ مزيجاً من النشاط الثقافي والنفسي بالنسبة لبيئة معيّنة .
ويعتبر كتاب " أنماط الثقافة " الذي نشرته بيند كيت عام 1932 البداية الحقيقية لبلورت الاتّجاه التاريخي النفسي في دراسة الثقافات الإنسانية حيث أوضحت الدراسة أنّه من الضرورة النظرة إلى الثقافات في صورتها الإجمالية أي كما هي في تشكيلها العام وذلك لأنّ لكلّ ثقافة مركز خاص تتمحور حوله وتشكّل نموذجاً خاص بها يميزها عن الثقافات الأخرى.
وقد انصبّ اهتمام أصحاب هذا الاتّجاه على دراسة الموضوعات المتعلّقة بالتمييز الثقافي

الاجتماعي بالاستناد إلى الميزات النفسية السائدة بين الأفراد والجماعات وتعدّ دراسة بيند كيت عام 1946 حيث بحثت في علاقة الثقافة بالشخصيّة اليابانية وهذا ما ساعد في بلورة السياسة الأمريكية تجاه استسلام المحاربين اليابانيين في أثناء الحرب العالمية الثانية وأوضحت الد راسة أنّ الجنود اليابانيين كانوا سيرفضون الاستسلام بصورة مطلقة ويستمرون في القتال حتى الموت إلاّ أنّ تأثير مبادئ الطاعة والولاء للإمبراطور على هؤلاء الجنود جعلهم يستجيبون لتعليماته ويخضعون لأوامره.

- 2 الاتّجاه البنائي الوظيفي:

ترافق نشوء هذا الاتّجاه مع ظهور اتّجاه الانتشار الثقافي كردّ فعل عنيف على النظرية التطوّرية وقد تميّز الاتّجاه البنائي بأنّه ليس تطوّرياً وليس تاريخياً حيث ركّز على دراسة الثقافات الإنسانية كلّ على حدة في واقعها الحالي المكاني والزماني وهذا ما جعله يختلف عن الد راسات التاريخيّة لأنّه اعتمد العلم في دراسة الثقافات الإنسانية كظاهرة يجب البحث في عناصرها والكشف عن العلاقات القائمة فيما بينها ومن ثمّ العلاقات القائمة فيما بينها وبين الظواهر الأخرى .

يعود الفضل في تبلور الاتّجاه البنائي الوظيفي في الدراسات الأنثروبولوجية إلى أفكار العالمين البريطانيين "برونسلو مالينوفسكي" و "راد كليف براون " اللذين عاشا في أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ويدينان باتّجاهاتهما النظرية إلى أفكار عالم الاجتماع إميل دوركهايم الذي ركّز اهتمامه على الطريقة التي تعمل بها المجتمعات الإنسانية ووظائف نظمها الاجتماعية وليس على تاريخ تطوّر هذه المجتمعات والسمات العامة لثقافاتها.

فقد رأى مالينوفسكي أنّ الأفراد يمكنهم أن ينشئوا لأنفسهم ثقافة خاصة أو أسلوباً معيّناً للحياة يضمن لهم إشباع حاجاتهم الأساسية البيولوجية والنفسيّة والاجتماعية ولذلك ربط الثقافة بجوانبها المختلفة المادية والروحية والاجتماعية بالاحتياجات الإنسانية كترابط منظّم وخفي للعناصر الثقافية يساعد النموذج في تفسيره فالاهتمام بالبنية يوازيه في اتجاه آخر اهتمام وظائفي بالمعنى الذي يحدّده حيث يرى نفس العالم أن الوظيفة تعني تلبية حاجة من الحاجات ويكون فيها التحليل الوظيفي هو ذلك الذي يسمح بتحديد العلاقة بين العمل الثقافي والحاجة عند الإنسان سواء كانت هذه الحاجة أولية أو فرعية ثانوية .

فالثقافة كيان كلّي وظيفي متكامل يماثل الكائن الحي بحيث لا يمكن فهم دور وظيفة أي عضو فيه إلاّ من خلال معرفة علاقته بأعضاء الجسم الأخرى وإنّ دراسة هذه الوظيفة بالتالي تمكّن الباحث من اكتشاف ماهية كل عنصر وضرورته في هذا الكيان المتكامل.

ولذلك دعا مالينوفسكي إلى د ا رسة وظيفة كلّ عنصر ثقافي عن طريق إعادة تكوين تاريخ نشأته أو انتشاره وفي إطار علاقته مع العناصر الأخرى وهذا يقتضي د راسة الثقافات الإنسانية كلّ على حدة وكما هي في وضعها الراهن وليس كما كانت أو كيف تغيّرت.

اعتمد براون في دراسة المجتمع وتفسير الظواهر الاجتماعية تفسيرا اجتماعياً بنائياً ووظيفياً على فكرة الوظيفية التي نادى بها دوركهايم والتي تقوم على دراسة المجتمعات الإنسانية من خلال المطابقة والمماثلة بين الحياة الاجتماعية والحياة العضوية كما هي الحال في المشابهة بين البناء الجسمي المتكامل عند الإنسان والبناء الاجتماعي المتكامل في المجتمعات الإنسانية.

ويوضح) براون أن طبيعة هذا البناء الاجتماعي يندرج تحت هذا المفهوم العلاقات الاجتماعية كلّها والتي تقوم بين شخص وآخر كما يدخل في ذلك التمايز القائم بين الأفراد والطبقات بحسب أدوارهم الاجتماعية والعلاقات التي تنظّم هذه الأدوار وكما يستمرّ تجدّد بناء الكائن العضوي طوال حياته فكذلك تتجدّد الحياة الاجتماعية مع استمرارية البناء الاجتماعي في علاقاته وتماسكه.